المحاضرة الخامسة

♠ عناصر المحاضرة

_ مقدمة
_ مذهب الشك
_ موقف الفكر الإسلامي من الشك المذهبي
_ مذاهب اليقين
_المذهب النسبي

♠ مقدمـــة:

السؤال عن إمكان المعرفة هو سؤال عن جوهر المعرفة ومضمونها، وهو الحقيقة - أي هل يمكننا أن ندرك الحقيقة؟ وهل المعرفة ممكنة؟ وهل في وسع الإنسان أن يعرف شيئا؟

إن مسألة إمكان المعرفة لم تكن مطروحة في الفكر البشري قديما. وكان أول من بدأ البحث في مسألة إمكان المعرفة هم الفلاسفة اليونان، وتحديدا الذين عرفوا بالسفسطائيين أو الشكاك. وهؤلاء الفلاسفة (كانوا ينكرون قطعية المعارف الانسانية، وقد تطور الشك إلى أن أصبح مذهبا من المذاهب، وقد بلغ اشده على يد بيرون، صاحب المذهب لاشكي عند اليونان، حتى أنه لقب بإمام الشكاكين).

أما فلاسفة المسلمين ومتكلموهم، فقد (بحثوا في إمكانية المعرفة، وقد جعلوا مداخل كتبهم في العلم، وفي إثبات العلم والحقائق. وكأن مسالة الإمكان أصبحت ضرورة تسبق بقية أبحاث المعرفة، ذلك لأنه –في نظرهم- لا بد من التسليم بإمكان المعرفة حتى يتسنى البحث في بقية مسائلها، إذ أن من ينكر إمكان المعرفة لا يستطيع أن يتحدث عن طبيعتها ومصادرها، وإن الذي يتيقن من إمكان المعرفة يحق له أن يبحث في كافة موضوعاتها).

إن خير ما يدل على نظرة إمكان المعرفة ويقينيتها دعوتهم إلى عدم مناظرة السوفساطائيين ومجادلتهم، لأن من لا يعلم مدى إمكانية صحة كلامه في المناظرة، فكيف سيتم حواره. يقول الإيجي: (المناظرة معهم قد منعها المحققون؛ لأنها إفادة المعلوم بالمجهول، والخصم لا يعترف بمعلوم حتى تثبت به مجهولاً).

ويمكن تحديد ثلاثة اتجاهات أساسية عند الحديث عن مسألة إمكان المعرفة:

- فريق شك شكا مطلقا في إمكان المعرفة.
- فريق يرى يقينية المعرفة، وهم الاعتقاديون أو الدغمائيون.
- فريق ثالث يرى أنه بإمكان الانسان أن يصل على معرفة متناسبة مع قدراته الحسية والعقلية، وهم النسبيون.

♠ مذهب الشك في إمكان المعرفة (Skepticism):

١. الشك المطلق:

بالرغم من أن الشك في أصله هو التردد في إصدار حكم بغرض الإمعان والتفحص، وهو ما يطابق معنى اللفظ اليوناني. إلا أن الشك القديم لم يكن يحمل هذا المعنى كما أنه اتخذ معنى جديداً في وقت لاحق.

فالصراع والتضارب بين المتناقضات الفلسفية في الفكر اليوناني كان سببا لبلبلة فكرية وارتياب جذري، انتهت بهم على إنكار جميع الركائز الفكرية للإنسان، وإنكار المحسوسات والبديهيات.

وأول من ظهر على يديه هذا المذهب هو بيرون أو فيرون (Pyrrhon). وقد وضع جورجياس (٣٨٠ ق.م) كتابا تحدث فيه عن عدم إمكان المعرفة، وعدم الوثوق بالعقل والحواس.

ثم جاء السوفساطئون وأنكروا وجود مقياس ثابت للحقائق، ورأوا امتناع وجود حقيقة مطلقة، وشكوا في كل شيء. وتحولت السفسطة على عبث بالفكر والعلم. وكانت هذه الطائفة تؤمن بالبحث والجدل، وأحيانا يصل بهم الجدل على إنكار أنفسهم أيضا.

فعاشوا تناقضا بين وجودهم وتصوراتهم، ففي الوقت الذي ينكرون فيه كل حقيقة، تجدهم يلبون حاجاتهم البيولوجية دون ان ينكروا ذلك.

وهذه المدرسة تنكر إمكان معرفة طبيعة الأشياء، وترى أن المعرفة الحسية والعقلية ليس لها قدرة تعريفنا بالحقيقة وإيصالنا إليها، فنحن لا ندرك من الأشياء إلا ما (يبدو) لنا. وكأن الأشياء خارج الذات المدركة محض مظهر، أما إدراك طبيعة ذوات الأشياء فلا سبيل إليه.

ذلك لأن المعرفة - في رأي هذه المدرسة - تتأسس على الإدراك الحسي، والحواس خادعة لا تقود إلى معرفة يقينية؛ وحتى النظر العقلي - عند الفيرونيين - يتأسس على الحس فمعرفته حسية غير مباشرة ومن ثمّ يكون أولى أن ينطبق عليه ما ينطبق على الحس من حيث عدم يقينية المعرفة.

ولذلك كان شكهم شكا مذهبيا (مطلقا)، بمعنى انه يقوم على اساس أن الشك غاية في ذاته.

٢. الشك المنهجي:

(الذي لا يعتبر الشك غاية في ذاته، بل يعتبر الشك وسيلة ليتوصل من خلاله إلى غاية أخرى وهي بلوغ اليقين).
ويرجع هذا الشك في جذوره التاريخية إلى الفيلسوف اليوناني سقراط. كما استخدم أرسطو ومدرسته المشائية الشك استخداما منهجيا تأثرا بسقراط. إذ رأى أن اليقين المنطقي يجب أن يقوم على الشك كمنهج في فحص الأفكار والتأكد من قابليتها للتعميم.
وعرف الشك المنهجي في حقل المعرفة الإسلامية عند المعتزلة، إذ كانوا يشترطون الشك كمقدمة ضرورية لصحة النظر المؤدي إلى العلم، إذ لا يصح النظر عندهم إلا مع الشك.
أما أبو حامد الغزالي فقد سلك طريق الشك بحثا عن اليقين، وقد قرر في كتابه (المنقذ من الضلال) أن من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى.
وكان ديكارت من أكثر الفلاسفة تأكيدا على ضرورة الشك كمنهج في التفكير، وهو إلى جانب الغزالي يعتبران واضعي أسس الشك المنهجي، وكان هذا الشك هو التمهيد الضروري للمنهج.
ويعتبر الفيلسوف التجريبي ديفد هيوم من فلاسفة الشك المنهجي، الذي سماه بالشك العلمي.
خلافاً لأصحاب الشك المطلق الذين يقعون في الحيرة فيمتنعون عن إصدار الأحكام، فإن أصحاب الشك المنهجي قد اتخذوا من الشك سبيلاً إلى اليقين، وهو عملية اختيارية هدفها إفراغ العقل مما فيه من معلومات سابقة قد تكون عرضة للمغالطة وعدم التأكيد، وذلك لتهيئة العقل لدراسة الأمور دراسة موضوعية غير متأثرة بالمفاهيم الشائعة والأخطاء المألوفة.

❖ القيمة العلمية للشك المنهجي:

بعد أن تلاشى الشك بوصفه نظرية في المعرفة توطدت أركان الشك بوصفه منهجاً للبحث والتدقيق في المعرفة، وتمدد بأدواته من الشك المعرفي (الشك الإبستمولوجي)، بوصفه موضوعاً فلسفياً إلى شك منهجي يحفز الإنسان للبحث، والنظر، والتدقيق؛ ليشمل العلوم النظرية والتجريبية كافة، سواء تلك التي تولدت عن الفلسفة، واستقلت عنها، أو تلك التي نشأت مستقلة بذاتها.

❖ مجـالات الشـك:

بمدارسة نوعي الشك (مطلق - منهجي) تبين لنا أن الشك المطلق هو شك في أصل المعرفة وإمكانيتها لذا يُسمى (بالمعرفي) لإنكاره إمكان المعرفة أو (الفلسفي والمذهبي) لكونه مذهباً فلسفياً يعتقد صاحبه بانتفاء موضوع المعرفة، واستحالة إدراكها، وفي مقابله نشأ الشك المنهجي بوصفه منهجاً للبحث عن الحقيقة لذا سُمي أيضاً (بالعلمي) وهو لا ينتقص من يقينية أصحابه بوجود حقيقة يمكن معرفتها، ومن هذه العلاقة الجدلية بين الإطلاق والنسبية يثور التساؤل حول المجالات التي يمكن أن يتطرق إليها الشك، بل التي طرقها بالفعل.
ومجالات الشك تختلف في دائرة الشك المطلق عنها في دائرة الشك النسبي (المنهجي).

❖ مجالات الشك المطلق:

أ- الشك في الحقيقة التي هي موضوع المعرفة، وهو شك في وجودها.
ب-الشك في إمكان معرفة الحقيقة (إن وجدت).
ج- الشك في إمكان إبلاغ المعرفة أو تداولها.

❖ مجالات الشك النسبي:

بعد التسليم بوجود حقيقة وإمكان إدراكنا لها، يظل الباب مفتوحاً لألوان من الشك النسبي أو الجزئي ومن ذلك:
أ) الشك في طبيعة المعرفة: ومصدره تباين المذاهب في تكييف طبيعة المعرفة مما يوقف الفلاسفة موقف الشك تجاه هذا التباين.
ب) الشك في مصادر المعرفة: فإنكار كل مذهب ومدرسة فلسفية لمصدر أو أكثر من مصادر المعرفة هو شك في جدوى هذا المصدر، ومدى يقينية المعرفة المتأسسة عليه، فمن أصحاب المذاهب من يصب شكه على الحواس، ومنهم من يشك في العقل، ومنهم من يشك فيما سوى الحدس والإشراق، وكل ذلك من صور الشك.
ج) الشك طريق إلى اليقين: وهو شك في المعلومات والآراء المسبقة، وهدفه إفراغ العقل توطئة لإعماره بحقائق يقينية تتأسس على بديهيات أولية، وهذا هو الشك الذي عاشه الغزالي. وحالة إفراغ الذهن أيضاً مرّ بها ديكارت حتى استقر على نقطة من اليقين في حقيقة تفكيره التي أسّس عليها حقيقة وجوده (أنا أفكر إذن أنا موجود).
د) تأسيس العقيدة بين الفطرة والشك والنظر:
وهدف هذا الشك ومجاله ليس المعرفة النظرية، وإنما تأسيس إيمان يقيني بالله. فالإمام الجويني يرى أن أول واجب على المكلف هو النظر - وهو رأي المعتزلة - بينما يرى الإمام الإيجي أن المعرفة تتقدم وطريقها النظر ومن ثم يكون واجباً، ولكن الإيجي لا يرى النظر هو السبيل الوحيد إلى المعرفة فقد تحصل بالإلهام، والتصفية، والتعليم، ولكنه قد يكون السبيل الوحيد لمن وقع في الشك، والشك على العموم حالة طارئة لا يلزم سبقه لكل نظر أو معرفة.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فيرى أن للفطرة أثراً أساسياً في معرفة الله، ثم من حصل له الشك ولم يكن من سبيل لدفعه سوى النظر؛ يلزمه النظر - فهو يوافق رأي الإيجي - كما يرى الشك أمراً عارضاً علاجه النظر - وفي ذلك يوافق القاضي عبد الجبار - مع تحذيره من عواقب إتاحة النظر للعامة لصعوبة طرقه، وما قد يثيره في نفوس جمهور الخلق.
فالشك إذن تتعدد صوره ومجالاته من كلّي إلى جزئي، ومن مطلق إلى نسبي، فيصل في قمته إلى درجة إنكار الحقائق الموضوعية، وفي أدنى منازله يكون شكاً في وسيلة من وسائل تحصيل المعرفة أو أداة من أدواتها، ويتلون اسمه بحسب نوعه ومجاله فالمتعلق بأسس الاستنباط يكون منطقياً، وربما كان جزئياً متعلقاً بالأسس المعرفية كالتجريبي، وغير ذلك من الأنواع.

♠ موقف الفكر الإسلامي من الشك المطلق (المذهبي):
الشك المطلق هو الشك المبني على إنكار المعرفة اليقينية، ونفي الحقائق، والقول بتكافؤ الأدلة، ومن ثم تعليق إصدار الأحكام. وهذه الصورة من الشك وصلت إلى مفكري الإسلام إثر حركة الترجمة مثلما وصلت إليهم ردود سقراط، وأفلاطون، وأرسطو على هؤلاء الشكاك والمغالطين، وفي إطار التفاعل مع تراجم الفلسفة اليونانية:
١-علاقة الشك المطلق بإمكان المعرفة: الحديث عن موقف الفكر الإسلامي من الشك المطلق، هو حديث عن الموقف من إمكان المعرفة - بالضرورة - لطبيعة العلاقة بين الشك المطلق وإمكان المعرفة، أو لكونهما على النقيض فإثبات أحدهما نفي للآخر.
الوجود وإمكان معرفته (التصور الإسلامي للموجودات): إذا كان الشكاك الأوائل قد وصل بهم أمر الشك المعرفي إلى حد إنكار الوجود نفسه والأشياء وإمكان إدراك طبيعة ذوات الأشياء، فإن الفكر الإسلامي يقف موقفاً مغايراً لهذا التصور، إذ يقرر استنادا إلى القرآن وجوداً مستقلاً للأشياء خارج نطاق الذات المدركة إذ يقول تعالى: (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) [النحل: ٨].
فهذا الخلق الرباني موجود من حولنا أحاط به إدراكنا أو لم يحط، أما التقسيم اليوناني للأشياء إلى: فيزيقية (طبيعية). و ميتافيزيقية (ما ورائية أو ما وراء الطبيعة).
فلا يبعد كثيراً عن التصور الإسلامي مع خصوصية المعاني والمفردات حيث تنقسم الأشياء إلى: ١- عالم الشهادة: ويشبه مفهوم عالم الطبيعة الخاضع لإدراك الإنسان بالحس والتجربة، والشهادة هي الخبر القاطع.
٢- عالم الغيب: ويشبه مفهوم العالم الماورائي، وهو ما غاب عن الإنسان، ولم يدركه بحسه، وإنما بإخبار من الله ورسوله.
ولفظا الغيب والشهادة - مع تقابل المعنى وردا تجاوراً في كتاب الله في عشرة مواضع، وجميعها وردت في بيان اختصاص الله تعالى بالعلم المطلق (غيب وشهادة). والمعرفة الكلية لا يتاح لبشر من خلقه أن يحيط بها على وجه الشمول واليقين.

٢- الأساس القرآني لإمكان المعرفة:
القرآن يحمل الشواهد التي تؤكد على إمكان المعرفة وإدراك الحقائق على وجه اليقين، بمصادر وأدوات، ونقف هنا على شواهد من الآيات التي حملت ألفاظاً ذات دلالات معرفية في سياقها المصطلحي ممثلين بآية واحدة لكل لفظ من ألفاظ (المعرفة) و (العلم) و (الحكمة) و(اليقين)، ومن ذلك قوله تعالى: (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين)[المائدة: ٨٣]، (وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا) [النجم: ٢٨]. ذلك مما ورد في شأن المعرفة والعلم، وفي شأن الحكمة قال تعالى: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً) [البقرة: ٢٦٩]. والحكمة قد فسرها المفسرون (بإصابة الحق والعمل به).
وفي شأن اليقين وتناقضه مع الظن يقول تعالى: (وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين) [الجاثية: ٣٢].
كذلك أبان القرآن العلاقة بين الشك واليقين، والعلم والظن في مقابلة بليغة حوتها آية واحدة في قوله تعالى: (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما) [النساء: ١٥٧].
وإذا استصحبنا تداخل المعاني بين ألفاظ المعرفة، والحكمة، والعلم في النصوص الشرعية، والفكر الإسلامي عموماً، علمنا أن القرآن يحض على طلب العلم الراسخ والمعرفة اليقينية، ويدعو إلى نبذ الظنون، والشك، والتوهم ما أمكن ذلك، والنصوص الحاضة على العلم، والتفكر، والتأمل كثيرة في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، ومن أدوات المعرفة التي أشادت بها النصوص (الاجتهاد في الرأي) و(الاستنباط) المبني على أسس النصوص وأصولها، والصادر ممن هو أهل لذلك، فقد قال تعالى ناسباً إلى الأئمة المجتهدين القدرة على معرفة مراده.

♠ مذاهب التيقن (Dogmatism)

بذل الفلاسفة والباحثون منذ القدم محاولات عديدة لنقض مذهب الشك، وقد صوروا ادعاء الشك باستحالة المعرفة ادعاءً باطلا.
وقد تمكن دعاة اليقين والجزم من القضاء على الشك من حيث هو نظرية في المعرفة، ولكن الشك المنهجي بقي عند الكثيرين منهجا مقبولا في التفكير، وبقيت له قيته في البحث من حيث هو منهج وليس مذهبا.
ويسمى التيقن أيضاً بالاعتقادي، أو اليقيني، أو القطعي، أو النزعة التوكيدية، أو الإيقانية، أو القطعية لاختلاف في الترجمة، وقد يُعَرَّبُ اللفظ عوضاً عن ترجمته؛ فيقال (دوجماتي) أو (النزعة الدوجماطيقية).
الاعتقاديون في المصطلح المعاصر هم أنصار المذهبين العقلي والتجريبي تحديداً. وتطورت صفتهم الفلسفية من خصوم للشكاك في العصور القديمة، إلى خصوم للنقديين في العصور الحديثة، كما انقسموا إلى عقليين يعدُّون العقل مصدراً وحيداً للمعرفة لا مجال معه للخبرة أو الحواس، أو تجريبيين يعدُّون التجربة الحسيّة مصدراً وحيداً للمعرفة.

أ. اليقينية (الدوغمائية) العقلانية: يذهب العقليون إلى إمكانية وصول العقل على معارف أولية قائمة بذاتها، لا يعتريها الخطأ والنسبية، كالمعارف الرياضية التي تثبت بداهة. وهذا العقل قادر على إدراك الحقائق الموضوعية دون الحاجة على مساعدة الحواس التي من شأنها أن توقع الإنسان في احتمالات الخطأ أو النسبية في الحكم. فالعقليون يؤمنون بالمعارف العقلية في الدرجة الأولى، أما المعارف الحسية فإنهم لا ينكرونها؛ وإنما لا يثقون بجدواها في قيام العلم.
ب. اليقينية (الدوغمائية) التجريبية: هي النوع الثاني من النظريات اليقينية، وهي تعبر عن مواقف التجريبيين الذين اكدوا إمكان المعرفة عن طريق التجربة، وتصوروا أن افكارنا كلها من صنع العالم الخارجي. ويعتبر جون لوك من القائلين بإمكان المعرفة من التجربة الحسية والخبرة.

♠ المذهب النسبي (النقدي):
يتفق النسبيون مع القائلين بإمكان المعرفة ووجود الحقيقة. ولكن هذه الحقيقة أو المعرفة الإنسانية لا تعدو ان تكون معرفة نسبية، بمعنى أنها ليست خالصة من الشوائب الذاتية وليست مطلقة، إنما هي مزيج من الناحية الموضوعية للشيء والناحية الذاتية للكر المدرِك، فلا تنفصل الحقيقة الموضوعية في التفكير عن الناحية الذاتية.
إن نسبية المعرفة كما يراها أصحاب هذا المذهب، تعني أننا لا نستطيع أن نعرف كل شيء، فإذا عرفنا بعض الأشياء لن نستطيع أن نحيط بها إحاطة تامة، وما من فكرة في العقل إلا وكان إدراكها تابعاً لمعارضتها بفكرة سابقة مختلفة عنها او شبيهة بها؛ لذلك كان من المحال إدراك المطلق لأنه لا يتصور وجود شيء خارجه حتى يعارض به.
ويعتبر كانط رائداً لهذا المذهب، وهو يعتمد على فكرة التأليف بين العقل والأشياء، أو بين الذات والموضوع. والمعرفة اليقينية عن العالم الخارجي ممكنة عند كانط، بشرط أن لا تتجاوز حدود ظوتهلا الأشياء كما تتلقاها الحواس. ويعتبر انشتاين من اشهر دعاة المذهب النسبي في إمكان المعرفة.